بابل والتوراة
(التوراة والتوراة البابلية)
الفكر الديني البابلي مترجم في نصوص التوراة

م. م. علي سداد جعفر
جامعة بابل / كلية الآداب
بحث مقبول للنشر في موسوعة الحلة

احتوت التوراة معلومات تاريخية مهمة عن بلاد وادي الرافدين بحكم المخلفات الحضارية التي اخذ منها اليهود الكثير في حقل الأساطير والقصص والمعارف وضمنوها في توراتهم منذ بدء الخليقة ، فالفكر الديني البابلي نراه مترجم في نصوص التوراة .

فلم تكن التوراة مكتوبة لدى اليهود في بابل ولا كانت موجودة لديهم في أيام السبي البابلي، فأصبح من البديهي اثر البابليين على الديانة اليهودية ، فتكون دين جديد في الأسر البابلي بتأثير مختلف مصادر الثقافة البابلية ، كل ذلك كان بسبب ولع اليهود بمحاكاة الوثنية .

أن الفكر الديني هو احد المواضيع التي أولاها الإنسان أهمية كبيرة منذ عصور موغلة في القدم ، إذ كان نموه وتطوره مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتطور الجماعات البشرية البدائية التي أخذت تميل مع الزمن إلى تطوير إمكاناتها المتواضعة وعند ذاك زاد توجه تلك المجتمعات إلى ترجمة ثقافات الجماعات الأخرى ومما ساعد على ذلك احتكاك تلك الجماعات فيما بينها من جهة وبينها وبين الجماعات التي صادفتها في أثناء ترحالها أو تلك التي اتصلت بها عند بلوغها مناطق سكناها الجديدة من جهة أخرى ، فقد حصل تبادل في الخبرات التقنية المهمة وجوانب الحياة الأخرى كالجانب الديني . وبسبب تزايد أفراد تلك الجماعات وتراكم خبراتهم فقد اندمجت تلك الجماعات في عجلة التطور الحضاري ، وهكذا أسهمت الترجمة في الارتفاع بمستوى البشرية نحو الأفضل.

تشير الدلائل التاريخية إلى أن البدايات الأولى للترجمة كانت مقتصرة على الترجمة الشفوية للموروث الحضاري السائد آنذاك ، فقد كانت تفي بأغراض الناس وحاجاتهم الضرورية في صلاتهم وعلاقتهم بجيرانهم وما تقتضيه الحياة من تعامل ومبادلات ، وهذا قد يكون أمراً

طبيعياً قبل أن تُعرف الكتابة ، ولما كان البشر يتكلمون لغات مختلفة فإن ذلك يعني أن الضرورة كانت تستدعي وجود وسيلة للتعارف الحضاري ومن هنا فرضت الترجمة وجودها بين تلاقح أفكار تلك المجتمعات .

إنّ اختراع العراقيين القدامى للكتابة يعد من أكبر الإنجازات التي قدمت للبشرية جمعاء وأكبرها وقد ظهرت لأول مرة عام (3200ق.م) قبل أن تبلغ مستواها المطلوب من النضج اللغوي الكامل في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، وكان لاختراعها الفضل الأكبر في تدوين ما يدور من أفكار في أذهان الناس في تلك العصور ولاسيما ما يتعلق بالجانب الديني الذي كان يتداول شفاهياً بين عامة الناس .

فاللغة إلى جانب أنها وسيلة من وسائل الاتصال الحضارية والضرورة الحياتية فقد كانت السبب في رقي الإنسان وسمّوه على سائر الكائنات على الأرض ، وكان احتياج اللغات إلى بعضها أمراً طبيعياً ، فكان لابد لكل أمة ، إذا كانت تريد معرفة أسباب نهوض الأمم الأخرى في علم أو أدب أو فن أو دين أو نظام اجتماعي واقتصادي متطور لتلحق بركب تلك الدولة ، من الاطلاع على ذلك الرقي عن طريق معرفة لغة تلك الأمة .

ومع أن الترجمة مهنة قديمة فان ترجمة الكتب أو المؤلفات سواء أكانت أدبية أم علمية لم يكن لها ذلك التاريخ القديم الذي نجده مثلاً في لوحات بابل وآشور وتل العمارنة ، فعلوم اليونان والإغريق قد نمت وتطورت في مراحل زمنية لاحقة لمرحلة النشاط العلمي في بلاد ما بين النهرين ، ولعل أحد الأسباب الرئيسة التي أدت إلى تأخر الترجمة التحريرية هو أن التأليف قد بدأ في وقت متأخر ، فقد كانت الكتابة مقتصرة على الأمور الاقتصادية والدينية والاحتفالات والمراسم وقد بدأ المؤرخون السومريون نحو عام(3200ق.م) يكتبون ماضيهم وحاضرهم ومن ثم بدأ المصريون بالكتابة حوالي القرن الرابع قبل الميلاد حيث كانت أغلب كتاباتهم دينية على جدران المقابر .

يعود الفضل الأكبر في اختراع الكتابة إلى السومريين الذين اتخذوا من جنوب بلاد الرافدين وطناً لهم وظلت لغتهم هي اللغة الرئيسة في البلاد مدة من الزمن ، بعد ذلك ظهر الجزريون (الساميون) الذين أخذوا يتعايشون سلمياً مع السومريين ، وبمرور الزمن ، وبالتحديد في بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، أصبح الجزريون يشكلون أغلبية سكان البلاد فانتشرت ثكناتهم بشكل كبير فأصبح هناك ازدواج لغوي متمثل بوجود لغتين ، هما : اللغة السومرية واللغة

الأكدية بفرعيها الآشورية والبابلية القديمتين ، ونتيجة لذلك الازدواج ظهرت لدينا القواميس اللغوية وهي عبارة عن معاجم احتوت على عمودين ، الأول : احتوى على علامات باللغة السومرية ، يقابلها في العمود الثاني شروحات تلك العلامات باللغة الأكدية ، ونتيجة لذلك نشطت حركة الترجمة ؛ إذ ترجمت قصص وملاحم عديدة من السومرية إلى الأكدية كما ترجم الكثير من النصوص الخاصة بالجانب الديني متمثلة بالتراتيل الخاصة بالصلاة والمراسيم الدينية .

ونتيجة لازدواجية اللغة في ذلك العصر الأكادي ولعدم تمكن الكتبة من استعمال كلتا اللغتين في آن واحد ، وذلك لعدم إتقانهم اللغة السومرية ، اتجه الكتبة الكبار إلى إيجاد حل لتلك المشكلة بتنظيم قوائم وجداول تضم أكثر الكلمات السومرية المتداولة في ذلك الوقت وما يقابلها من معانٍ باللغة الأكدية .

وكان ذلك أيضا سائداً في بابل القديمة أيام الدولة البابلية القديمة حدود (2000–1600ق.م) ، حيث جاءت الوثائق البابلية مليئة بالمفردات والمصطلحات السومرية التي استخدمت ضمن النصوص الأكدية دون أي تغيير ، وقد استبدلت فيما بعد عن طريق المعاجم التي عمل الكتبة البابليون على إيجادها بشكل رُقُم طينية كانت تضم حقلين متقابلين ، ضم الأول المفردات السومرية أما الثاني فقد ضم ما يقابلها باللغة الأكادية ، وهي من قبيل كتب النحو إذ تحتوي على تصاريف المفردات ومرادفاتها وتراكيبها النحوية ، واستخدم البابليون كذلك طريقة الشروح والهوامش وذلك لتفسير الغامض فيما بين السطور وبخط دقيق . وبذلك يمكننا أن نقول بأنهم قد أسسوا لما عرف فيما بعد بعلم اللغة . ولم يكتفوا بالفهارس ثنائية اللغة فقد أبدعوا في عرض مئات بل الآلاف من الجمل الخبرية المتماثلة وبشكل مرتب .

أن لظهور الكتابة في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد وما تبعه بعد ذلك من تطورات اقتصادية واجتماعية وسياسية في مدن العراق القديم ودويلاته أثره في ظهور مهن جديدة ، وذلك للزيادة في تقسيم العمل ، وقد ساعد على ذلك أن الاختصاصات أصبحت أكثر مهنية ، فظهرت الحاجة إلى المترجمين .

وكان تدوين الفكر الديني عند السومريين سبباً من أسباب ظهور الحاجة إلى الترجمة التحريرية وكانت النصوص المترجمة نصوصاً تتضمن بالدرجة الأولى التعاليم الإلهية ، وعلى ما يبدو فإن السومريين لم يتمكنوا من الكتابة في ذلك الموضوع إلا عن طريق فهارس بأسماء الآلهة مصنفة في عمود واحد دور أن يكون لها تعليق أو توضيح ، أما الفهارس التي وجدت عند

البابليين فهي على العكس من ذلك تتألف في الغالب من عمودين توضح أسماء الآلهة وتشرحها وتفيد بمعلومات أساسية عنها ، ثم ظهرت بعد ذلك بفترة تعليقات شعائرية استقيت مضامينها من تلك الفهارس نفسها ومن الأساطير والشعائر الدينية الشائعة ، فظهرت مدائح دينية ، وأدعية وابتهالات وأغاني الرثاء وتعويذات سومرية ، ومدائح سومرية للآلهة الأبطال وأدعية ورسائل إلى الآلهة وأدعية للتوبة وابتهالات مرافقة لتقديم القرابين ، وابتهالات وأدعية لنصرة الملوك .

إن أية أمة لا تستطيع أن تعيش بمعزل عن الأمم الأخرى بسبب التمازج الحضاري وكان نتيجة ذلك التمازج والالتقاء الحضاري حدوث انصهار ثقافي ونشوء ازدواج لغوي بين لغات تلك الأمم ، وينتج من ذلك الازدواج تأثيرات لغوية لإحدى اللغتين على الأخرى ، وكان نتيجة ذلك الانصهار الثقافي بين السومريين والأكاديين ، أن قام الكتبة الاكديون بنقل غالبية النتاج الأدبي السومري ولاسيما ماله علاقة بالمعتقدات الدينية إلى اللغة الأكدية ، " وأجريت خلال عملية الترجمة والنقل إلى الأكدية بعض التعديلات والتحويرات وأضيفت وحذفت فقرات معينة كل ذلك بما ينسجم وأفكار الأقوام الأكدية والبابلية والآشورية ومعتقداتهم ومفاهيمهم ، كما عدلت بعض القصص الدينية وغيرت شخوصها بما يتفق وارتفاع شأن البابليين أو الآشوريين وكما كان شائعاً في العراق القديم وفق مبدأ التفضيل أو التفريد في المعتقدات الدينية " .

فقد كان الإنجاز الحضاري الأكبر الذي يحسب للإنسان البابلي وحتى السومري الأقدم عهداً هو أغناء الفكر الإنساني ، وأن الكتب القديمة من التوراة تراجم لقصص الخلق البابلية والسومرية القديمة ، كما لوحظ التشابه الواضح بين التلمود وشريعة حمورابي ، واحتوت أسفار التوراة على الكثير من المعلومات التاريخية المهمة لبلاد الرافدين ، فقد اخذ العبرانيين من تلك الحضارة الكثير في مجال الأساطير والقصص والمعارف وضمنوها في توراتهم ، حتى إن إحدى الأساطير الدينية السومرية تروي لنا أقدم الوصف لقصة الطوفان ، فأسطورة الطوفان تظهر ملك شوروباك كأنه بطل الطوفان وفي التقليد البابلي الآشوري قصة جلجميش ، أي نظيراً لـ (أوتونابيشتم) ونوح في الكتاب المقدس ، وكان العراقيون القدماء قد تناقلوا هذه القصص على أفواه الناس حتى اختراع الكتابة ومن ثم دونت ، فأصبحت ترجمتها أكثر سهولة بعد تثبيتها، حتى إن نقاد الكتاب المقدس كانوا يحاجّون اليهود ويتهمونهم بأنهم قد استولوا على نصوص دينية بابلية وسومرية قديمة أثر الأسر البابلي ، (وان ما ورد في التوراة من مزامير وأمثال وأشعار وشرائع إلى ذلك من أساطير وقصص فهو مستقى من المصادر الأدبية القديمة لمختلف

الحضارات التي اطلع عليها كتبة التوراة ومن المعتقدات والتقاليد الاجتماعية التي عاشوها ومارسوها في مناطق الاحتلال وهي كنعانية أو بابلية الأصل) ، وقد قبلت القبائل العبرية القديمة تلك القصص التي تعود إلى فجر الحضارة عام (3000ق.م) ، حيث اقتبس اليهود منها ما ينفعهم وحذفوا كل ما لا يلق استحسانهم ، كما وجدت نصوص دينية مستلة من الحكمة البابلية في مدينة مجدو الفلسطينية ، إذ عمل الكتبة المحليون على استنساخها ومن ثم ترجمتها حيث كان هؤلاء الكتبة متبحرين بآداب وادي الرافدين وعلومه .

فقد كان تأثر اليهود بآداب حضارة وادي الرافدين ، قد انعكس على تطور معتقداتهم الدينية الأساسية من خلال ما اقتبسوه من تلك الحضارة ، أثناء وجودهم في بلاد بابل ، بعد استيلاء نبوخذنصر على أورشليم واخذ أهلها أسرى عام 598 ق. م .

وتشكلت التوراة من واقع تدوينات متعاقبة لأصول من موروثات شفوية قديمة ، ومجموعة من القصص التي تألفت من الحكايات الشعبية ، والأساطير والملاحم تناقلتها ذاكرة اليهود جيلاً اثر جيل ، وزاد فيها خيالهم ما شاء لهم إن يدخلوا لها قصص خيالية ، حتى غدت تلك القصص اقرب إلى الأسطورة من الواقع فبدء النظر إليها على أنها أساطير وطنية تحولت مع الزمن إلى تاريخ .

وكان اطلاعهم على العقيدة البابلية في أيام الملك كورش الكبير الذي احتل بابل واسقط دولتها سنة (538ق.م) وارجع اليهود إلى فلسطين ، فقد سمح الأسر البابلي لليهود بالاطلاع على تلك الكتب الدينية التي تضم الأساطير والثقافات القديمة للعراقيين القدماء ، ومن ثم كان النتاج الأعظم لليهود أثناء الأسر البابلي تصنيف التلمود البابلي الذي يسمى في حالات نادرة بتلمود أهل الشرق ، وهو أسمى وارفع مقاماً عندهم من التوراة ومن باقي الأسفار لدى بعض اليهود ، وكان ذلك تحت التأثير البابلي الذي كان واضحاً على العهد القديم من قبله ، كما في استخدامهم للتقويم البابلي وهو واضح في سفر الملوك الأول .

إن ولادة الترجمة في العصور القديمة ولاسيما الترجمة الدينية كانت قد وردت في الإصحاح الحادي عشر سفر التكوين في التوراة الآية من (1) إلى (9) في أرض بابل زماناً ومكاناً فقد أورد الأبشيهي في كتابه (المستطرف في كل فن مستظرف) ما نصه :-" قال أهل التواريخ ونقلة الأخبار إن أول بناء بني على وجه الأرض الصرح الذي بناه نمرود الأكبر بن كورش بن حام بن نوح (ع) ، وبقصته عن أرض بابل وله إلى عصرنا اثر ذلك البناء كأنه جبال

شاهقات ، قالوا وكان طوله خمسة آلاف ذراع بناه بالحجارة والرصاص والشمع واللبان ليمتنع هو وقومه عن طوفان ثان فأخرب الله تعالى ذلك الصرح في ليلة واحدة بصيحة فتبلبلت به ألسنة الناس فسميت أرض بابل ".

وقد أحدث القرن التاسع عشر انقلاباً كبيراً بعد أن وضع الباحثون وثائق مهمة، تؤكد التشابه الكبير بين قصص التوراة وبين الكثير من ألواح الطين المكتشفة في العراق القديم ، ولاسيما تلك التفاصيل المكتشفة في قصر اشوربانيبال ملك آشور في نينوى وبالخط المسماري التي تخص ملحمة كلكامش التي ساقت لنا حكاية الطوفان ، وكذلك وجدت عدة روايات بابلية تتحدث عن الطوفان تشبه وبشكل واضح رواية التوراة.

فمن الآثار المكتشفة في بلاد بابل استدل العلماء على أن ما ورد في سفر التكوين من قصص وروايات عن أصل الكون وكيفية خلق الأشياء من سماء وأرض وحيوانات ونباتات وإنسان وعن الطوفان وما أعقبه ، كان مأخوذاً عن أساطير البابليين وقصصهم ، ثم بعد أن عثر المنقبون على النصب القائم في مدينة سوسا وقرؤوا ما كتب عليه من شريعة حمورابي تبين لهم أيضاً أن الأسفار الخمسة وهي التكوين ، والخروج ، واللاويين ، والعدد ، والتثنية ، من أصل بابلي ومأخوذة من تلك الشريعة البابلية .

ففي عام 1872م أُسْقطت نظرية أن التوراة هي المرجع الأساسي والوحيد في قراءة تاريخ الشرق القديم الذي يمتد إلى ما وراء القرن السادس قبل الميلاد ، إذ أعلن عالم الآثار جورج سمث أمام جمعية الآثار التوراتية في لندن عن اكتشاف ألواح فخارية ورقم طينية في مدينة نينوى تحتوي على تاريخ مشابه لأدق تفاصيل رواية الطوفان التي وردت في التوراة في سفر التكوين ، ما يعني أن التوراة استوحت هذه الرواية من الوثائق المسمارية المشرقية ، وهو ما يدل على وجود نقل أو ترجمة من تلك النصوص الدينية.

فقد احتوت التوراة على معلومات تاريخية مهمة عن بلاد الرافدين بحكم المخلفات الحضارية التي اخذ منها العبرانيين الكثير في حقل الأساطير والقصص والمعارف والأفكار الدينية وضمنوها في توراتهم ، كما أكد الباحثون على مسألة إن التوراة قد أخذت الكثير من المقومات الحضارية لبلاد الرافدين وجعلتها من ضمن نتاج العبرانيين الحضاري .

إن الديانة اليهودية التي دخلت عليها الطقوس الوثنية البابلية وغيرها لم تكتسب صيغة الضلال النهائية إلا في زمن متأخر , أي عند كتابة التوراة البابلية بعد فقدان الألواح في الأسر

البابلي , وهذا هو العصر الذي يمثل البداية الأولى للديانة اليهودية ، لقد ظل توحيد العبادة لله معروفا وغالباً لدى اليهود ، وإن لم تخل هذه الأزمان من حدوث الشرك لدى كثير منهم كما حدث عند عبادتهم لعجل السامري في أيام موسى عليه السلام ، فالديانة اليهودية خليط مقتبس من الطقوس البابلية وغيرها .

وكان اتجاه اليهود بعد وقوع الأسر البابلي يميل إلى التجسيم والتشبيه والانقسام والتعدد وبدا هذا واضحاً في جميع مراحل تاريخهم , وربما يكون تعدد أنبيائهم دليل على تجدد الشرك فيهم ، بل يرى المستشرق ويل ديورانت أن اليهود لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش ؛ لأن عبادة العجل كانت حية في ذاكرتهم منذ كانوا في مصر ، وظلوا زمنا طويلا يتخذون هذا الحيوان رمزا لإلههم .

ويذكر الدكتور إبراهيم شلبي أن مسألة الإلوهية كلها سواء اتجهت للوحدانية أو للتعدد لم تكن عميقة الجذور في نفوس اليهود , فقد كانت المادية والتطلع إلى الأسلوب النفعي في الحياة أكثر ما يشغلهم ، فاليهودية تهتم بالأعمال الدنيوية أكثر من اهتمامها بالقضايا الإيمانية , ومجال تفكير اليهودية ليس في الإيمان بالغيبيات وما وراء الحياة الدنيا ، وإنما مجالها الأوحد هو العالم الحاضر ، وقد تأثرت الحياة الاجتماعية لدى اليهود بالتعاليم الدينية المستمدة من الطقوس التي وضعوها متأثرين بالفكر الديني الوثني البابلي .

فأصبحت التوراة تحمل الكثير من صفات الآلهة الوثنية بسبب رغبت اليهود في الاقتباس الحضاري ، فالوثنية عاشت وترعرعت مع أكثر الشعوب تحضراً ، فالوثنية تسربت إلى اليهود فاختلطت بأفكارهم وامتزجت بعباداتهم .

أن من ابرز الخصائص العامة في ديانات بلاد الرافدين شيوع صفة التشبيه وهو إن تنسب إلى الآلهة صفات البشر الروحية والمادية فالعراقيون القدماء نقلوا إلى آلهتهم جميع الأفعال التي يمارسها البشر في حياتهم الخاصة والعامة من أخطاء ونزوات البشر ، فقد كانت الآلهة في بلاد الرافدين تمثل أسوء جوانب الطبيعة البشرية وأفضلها ، بالإضافة إلى شيوع تعدد الآلهة .

فاليهود لم يتأثروا بنقل صفات الآلهة الوثنية في وادي الرافدين إلى دينهم فحسب بل أنهم عبدوا في أيام السبي البابلي الآلهة البابلية ، بعد تأثرهم بالأفكار الوثنية وضعفهم أمام إغراءات

العبادات البابلية وطقوسها التي ترجموها فيما بعد إلى توراتهم ، فكان هذا دليلا لدى العلماء والمؤرخين أن البابليين كان لهم الأثر الأكبر على الديانة اليهودية في أثناء السبي البابلي ، ففي ذلك العصر بدأ اليهود بجمع العهد القديم تحت تأثير الحضارة البابلية ، فنقلوا منها الكثير من صفات الآلهة الوثنية والصقوها بآلهتهم .

وبذلك فان التوراة اليهودية هي عبارة عن سجل تاريخي وديني يمثل حقبة من تاريخ وحضارة العراق القديم بشكل عام وبابل بشكل خاص ، وهي انعكاس للفكر الديني الذي كان شائعاً في بابل ، فهي عبارة عن نصوص دينية بابلية مترجمه إلى اللغة العبرية ، ناقله بذلك الفكر الديني الوثني البابلي بشكل يلائم الفكر الديني اليهودي ، فالأحرى أن تسمى بالتوراة البابلية وليس التوراة اليهودية .

المصادر:

1. بوستغيت ، نيكولاس ، حضارة العراق وأثاره ، ترجمة : سمير عبد الرحيم الجلبي ، دار المأمون ، ط1 ، بغداد ، 1991م .
2. الزغبي ، د. فتحي محمد ، تأثر اليهودية بالأديان الوثنية ، ط1 ، طنطا ، 1994م .
3. زودن ، ف . فون ، مدخل إلى الشرق القديم ، ترجمة: د. فاروق إسماعيل، دار المدى، دمشق ، 2003م .
4. سلمان ، د. حسين احمد ، كتابة التاريخ في وادي الرافدين في ضوء النصوص المسمارية ، بغداد ، 2009م .
5. سلمان ، كاظم جبر ، الصلات الحضارية والسياسية بين العبرانيين والعراق القديم منذ بداية العصر الآشوري الحديث حتى نهاية العصر الأخميني ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بابل ، 2005م .
6. طعيمه ، صابر ، التاريخ اليهودي العام ، ج2 ، دار الجليل ، ط3 ، بيروت، بلا تاريخ.
7. عزيز ، د. كارم محمود ، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، دار الحصاد ، ط1 ، دمشق ، 1999م .
8. القيسي ، د. محمد فهد ، قصة الخليقة بين الألواح المسمارية والكتب السماوية ، ط1 ، دمشق ، 2011م .
9. كاسيدوفسكي ، زينون ، الواقع والأسطورة في التوراة ، ترجمة: د.حسان ميخائيل إسحاق ، ط1 ، دمشق ، 1990م .
10. كييرا ، إدوارد ، كتبوا على الطين ، ترجمة: محمود حسين الأمين ، ط2 ، بغداد، 1964م .